السنة الثامنة (رجب سنة ١٣٦١ — يوليه سنة ١٩٤٢ م) العدد الأول

صحيفة دار العلوم

(ج ع ١٩٣٤)

تصدرها جماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب جيابة

رئيس التحرير
محمد علي مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادي دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلي

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي بيومي
المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوي

في القطر المصري ..... ٢٠ قرشاً
خارج القطر ..... ٣٠ قرشاً
ثمن العدد ..... ٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

"إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

من ملامح الشعراء
فى شعر الجارم

للأستاذ على النجدى ناصف

يتأثر الإنسان بقراءة آثار غيره كما يتأثر بصحبته ؛ لأن القراءة نوع من الصحبة : تؤثر فى آراء القارىء ، ومذاهب تفكيره ، وأساليب تعبيره ، وفى النظر إلى الأشياء والحكم عليها .

والمقصود بالقراءة هنا قراءة الدرس والمراجعة ، لا قراءة التسلية وإزجاء الفراغ ؛ فهذه لا نتيجة لها ولا أثر ، إلا كما يكون للطعام لا يعنى طاعمه بتذوقه ومضغه .

ويختلف الناس فى التأثر بالقراءة باختلاف شخصياتهم : قوة وضعفا ، وصلابة ولينا ثم باختلاف نظرهم إلى من يقرءون لهم ، واختلاف منازلهم منهم واعتبارهم إياهم ؛ حتى ليكون هذا التأثر فى بعض أخذا واقتباساً ، وفى بعض آخر وحيا وانفعالا ، أو تذكرا وانتباها .

وليس ثمة قاعدة مقررة أو قانون معروف ، يمكن أن يعين على التحقيق ما يأخذ القارىء ، وما لا يأخذ من خصائص المقروء له ، ولكن يمكن أن يقال على وجه الإجمال : إن أحق هذه الخصائص بتوجيه القارىء والتأثير فيه —

أقربها إلى طبعه وأشبهها بأسلوبه فى أداء رسالته ، كالنبت فى مغارسه : لا يأخذ من عناصر التغذية إلا ما تطلبه طبيعة نوعه ، وتقتضيه مزايا ثمره .

فالشخصية الفنية إذا — موهبة طبيعية يمنحها الله من يشاء من خلقه . أما الثقافة فمادتها وصيقلها وصاحب صبغتها ولا مر ما يقال : صمصامة عمرو ، ولكن أين يمينه ؟

والإنسان إذ يتأثر بقراءة غيره لا يفقد استقلال شخصيته وخصائص ذاته ، كما أن الفرع إذ يرث بعض خصائص أصلية — لا يفقد شيئا من هذا أو تلك .

والأستاذ الجارم أديب كبير ، عالج الشعر وعرف به منذ كان غلاما ناشئا وأقدم قصائد ديوانه قصيدة الفخر ، قالها سنة ١٩٠٠ ، أى لنحو اثنين وأربعين سنة خلت . ومنها :

ستمت حياتى بين قوم ، فضائلى لديهم يغطيها التدابر والحقـــد
إذا مابدت ترنو إليهم فضيلة تصدى لها نذل ، وكر لها وغد

وليس يعنينا كثيرا فى هذا المقام أن تكون هذه القصيدة أولا محتفظة إلى اليوم بالصورة التى كانت عليها يوم قيلت لم يمسسها تغيير ولا تحوير ، ولكن الذى يعنينا ولا شك فيه عندنا أن ثمة قصائد أخرى تقدمتها ، وتدرج الشاعر صعدا فى معالجة نظمها حتى بلغ هذا المبلغ من الاقتدار على التصرف فى نظم الكلام . فهو إذا قد مارس الأدب والشعر عصرا طويلا ، وإن له به مع ذلك لولوعا عظيما ، لم يقلل منه لهو الشباب ولا جهاد الكهولة وأثقال الوظائف استمع إليه يتحدث عن عهد الشباب ، ويذكر كيف كان يلهو فيه :

فى حديث أحلى من الأمل الحلـــو ، وأصفى ديباجة من شراب
كل فصل كأنه صفحة الرو ض ، وعند العقار فصل الخطاب

ويجون ـ يحوطه الأدب الجم فما راعه اللسان بعاب
يتغنون بالنواسى حينا وبشعر الفتى أبى الخطاب

ثم استمع إليه يتحدث عن برنامج عمله اليومى ، حين يعكف على نفسه ويفرغ لمطالب وجدانه بعد أن طرح رداء الشباب :

إنى طرحت من الشباب رداءه وثنيت عن لهو الصبابة جيدى
واخترت من صحف الأوائل صاحبى وجعلت مأثور البيان عقيدى

وإذا لابد أن يكون الشاعر قد قرأ كثيرا ، وحفظ كثيرا ، وتأثر بكثير ثم هو قد جمع بين الثقافتين : الشرقية الإسلامية ، والغربية الإنجليزية ؛ فأتيح له الاتصال بقليل أو كثير من أدباء الغرب ومفكريه : يقرأ لهم ، ويسمع منهم ، ويتأثر بهم . فمن العسير جدا ، بل من المتعذر الذى لاسبيل إليه — أن نحصى الذين تأثر الجارم بهم ، وأن نصف آثارهم فى شعره . ولكننا نستطيع أن نقول مطمئنين : إن دراسته الإنجليزية لم تنل من عربية شعره ، أو تغير من سمته الأصيل فى أى ناحية من نواحيه . فلست بواجد فيه أثارة غريبة على الذوق العربى الخالص ، كالتى يمكن أن تجدها فى شعر كثير ممن جمعوا بين الثقافتين .

وقد يقال فى تعليل ذلك : إن الجارم قد أنفق فى دراسته الشرقية من الجهد والوقت أعظم وأطول مما أنفقه منهما فى دراسته الغربية ؛ فإذا هو فى الأولى عميق متبحر ، وإذا أثرها فيه أوسع مدى وأبعد غورا . ثم إنه بحكم عمله الرسمى فى مختلف المناصب التى تولاها لايكاد يجد من قلبه وعقله متسعا لغير العربية وثقافتها وكل مايمت إليها أو يتصل بها .

وهذا بلا شك كلام وجيه ، لكنه على وجاهته — لاينتظم جميع الأسباب التى تعلل هذه الخصيصة من خصائص الشاعر ، أو بعبارة أدق لايتناول

سببها الأصيل ؛ فبعض الأدباء ممن لم ينالوا من الثقافة الغربية مثل مانال الجارم — يحلو لهم أن يتكلفوا العجمة ، وأن يتشدقوا بالدعوة إلى اصطناع أساليبها وإيثار خصائصها فى الأدب والشعر . ومن هؤلاء من لم ينالوا من الثقافة الغربية المنظمة إلا طفاوات يسيرة ، هيهات لمثلها أن تقع من الطبيعة المستقيمة بموقع السيطرة والتوجيه ، لكنه الطبع الشاذ ، أو الميل مع الهوى ، أو الفتون بكل أجنبي غريب .

هناك إذا سبب آخر مهم ، إليه يرجع الفضل فى تفرد الجارم بهذه المزية بين أنداده . ذلك هو حبه الخالص للعرب والعربية . وتخيره بالانتساب إليها ، وولعه بتعداد مزاياها وضرب الأمثال بها فى كثير من المواقف . وأحفل قصائده بهذه المعانى قصائد المجمع اللغوى ، وبغداد ، واللغة العربية ودار العلوم ، والعربية فى ماضيها وحاضرها ، ومصر . ومن قوله يحيي العرب ، ويصف حبه إياها ، ويلحى خصومها :

سر يا قريض إلى العروبة مسرعا وانزل بآفاق بها ونواحى
وامزج بمسكى الأثير تحية لعشائر شم الأنوف سماح
شحوا بأن تلد المكارم غيرهم وهم على النجدات غير شحاح

ثم قال :

حب العروبة قد جرى بمفاصلى بالرغم من هذر الحديث ملاحى

ومن قوله يفخر بالانتساب إلى العرب :

نحيي بنى العرب الأوفياء ونسمعهم غرد البلبـــل
أولئك قومى بناة الفخار وزين المحافل والجحفل

ذلك موقف شعر الجارم من ثقافته الغربية كما يتمثل لى . أما موقفه من الشعر العربى فهو نمط منه سليم ، يجرى على سننه ، ويلتزم خصائصه كما حسن

مايكون الفرد بين آحاد نوعه. ونحن مع هذا واجدون فيه سمات لبعض الشعراء تدل عليهم، أو ماشابه تذكر بهم. وأكبر الظن أن ليس هناك أكثر من هذا. فالسرقات الشعرية كما أفهمها، وكما يدل عليها اسمها — لا أثر لها فيه على ماأرجح. فهي في أشمل معانيها، وأبعدها من التعسف والسرف — أن يعمد الشاعر إلى معنى لغيره أو شيء من كلامه، فيأخذه عن علم، ويدعي نسبته إليه. وهي بهذا المعنى جديرة أن تكون من عبث الخليين، أو تكلف الشداة والأدعياء. أما ذوو الجد والتصون وأصحاب الرياضة والطبع فهيهات أن تطوع لهم أنفسهم تعاطيها؛ غناء بما تجود به قرائحهم، أو أنفة واستكبارا ومايجيء في أشعارهم من آثار غيرهم فالراجح أنه لايجيء استراقا ولكن عفوا غير مقصود. ذلك بأن الشاعر حين يقرأ أو يحفظ إنما يختزن من نتاج غيره ذخائر حاضرة مهيأة، ولكنها تصير بمر الزمن إلى غياهب النسيان. وكلما بعد بها العهد وطال عليها القدم — زادت معالمها طموسا واندثارا، حتى لايبقى منها شيء يمكن أن يذكر بها. وقد تظل كذلك أبدا كأن لم تكن من قبل شيئا، وربما تهيأت لها فرصة مؤاتية؛ فتنجاب عنها حجب النسيان في ساعة من ساعات الإشراق التي يتجلى فيها ذهن الشاعر ثاقبا متلألئا، يعنو إليه العصي الممتنع من الطرائف المستحدثة، ويتداعى إليه المحجب المكنون من الذخائر التي حصلها من قبل بالقراءة والحفظ: توافيه على صورها الأولى كيوم علقت به، أو على صورة أخرى فيها إضافة أو حذف أو تغيير. وربما غم نسبها عليه، فلم يرها أجنبية منه، ولم يميز بينها وبين مبتكراته؛ فيعرضها معا على أنها له. وقد تظل نسبتها خافية عليه لايدري من أمرها شيئا، حتى يذيع الشعر، ويتداوله الناس، ويتقول عليه المتقولون.

ثم هنالك اتفاق الخواطر، وهو ظاهرة شائعة الوقوع، تعرض لنا في

كثير من مسائلنا اليومية ، وتتمخض أحيانا عن نوادر عجيبة لا تكاد تصدق ومنشؤها فيما يظهر — توافق الوجدان عند بعض الناس فى شىء بعينه لسبب ما من الأسباب الموجبة لهذا التوافق ؛ فتتوجه الأفكار وجهة واحدة ، وقد تقع إذ ذاك على معنى واحد ، فإذا هو قنص فى شركين لصائدين فى عصر واحد أو عصرين مختلفين .

وإذا أضيف إلى ذلك أن العرف الأدبى قد يختص بعض المعانى بعبارات معينة ، يلتزمها أو يكاد فى التعبير عنها ، أو على الاقل لا يرى بأسا من التزامها كأنها التراكيب الاصطلاحية أو الأمثال السائرة — إذا أضيف هذا إلى ذلك لم يكن من الغريب أن يفضى اتفاق الخواطر أيضا إلى الاتفاق او التشابه فى الألفاظ والعبارات فى بعض الأحيان .

إذا ، فليس من الدقة فى الحكم ، ولا مما تطمئن اليه النفس المنصفة — أن يقول قائل عن شاعر ذى موهبة : إنه أخذ قوله كذا من فلان ، لمجرد أن بين القولين نوعا من المشابهة أو الاتفاق ، وأن الشاعر الأول لاحق والآخر سابق ، مالم تقم إلى جانب ذلك بينة مؤيدة أو قرينة مرجحة . وإذا كان قدامى النقاد والأدباء قد توسعوا فى تحديد السرقة ، وأباحوا لأنفسهم الاتهام بها لأدنى مشابهة — فقد يكون عذرهم فى هذا أن جمهرة منهم كانت تراها نوعا من البديع[1] ، وهم قد اولعوا به وحرصوا على اصطناعه دهرا طويلا . أما نحن فما عذرنا إذا أخذنا فى ذلك إخذهم مع أن رأينا فى السرقة غير رأيهم ، وموقفنا من البديع غير موقفهم . وإذا لا نستطيع أن نقول فى غير تحفظ : إن الجارم أخذ قوله :

بهر الغرب طلعة منك كادت تتمشى شوقا لها أرجاؤه

(١) راجع الطراز : ٣ : ١٨٩

من قول أبي تمام :

تكاد مغانيه تهش عراصها | فتركب من شوق إلى كل راكب

أو قوله :

أينما سار فالعيون نطاق | وقلوب المجاهـــدين وقاؤه

من قول المتنبي :

وخصر تثبت الابصار فيه | كأن عليه من حدق نطاقا

أو قوله :

فإن سمعت رنينا كله عجب | فالعود عودي والأوتار أوتاري

من قول المتنبي ايضا :

أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما | بشعري أتاك المادحون مردداً

ودع كل صوت بعد صوتي فإنني | أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

أو قوله :

ولرب قافية بها | ماشئت من خيل وجند

تسري فلا صعب بصعـ | ـب ، لا ، ولا بعد ببعد

تثب الجبال وما لها | بين الكواكب من مصد

من قول المتنبي كذلك :

وعندي لك الشرد السائرا | ت، لا يختصصن من الأرض دارا

قوافٍ إذا سرن عن مقولي | وثبن الجبال وخضن البحارا

أو قوله :

مر بالشمس فلم تشعر به | إذ جرى ـ إلا ظنونا واشتباها

من قول ابن هانيء الأندلسي :

وأجل علم البرق فيها أنها | مرت بجانحتيه وهي ظنون

والآن ، ماذا فى شعر الجارم من ملامح الشعراء ؟ فيه منها غير قليل ، إلا أننا سنقصر الحديث على أبينها سمة ، وأوضحها دلالة على أصحابها.

فى غزله اتجاه إلى طريقة عمر بن أبى ربيعة فى غزله ، إذ يقص الوقائع ويدير الحوار بينه وبين صاحبته حينا ، وبينها وبين صواحبها حينا آخر . ومن يدرى لعل الجارم لو أكثر الغزل مثله لكان أكثر به تشبها ، وإليه اتجاها . قال عمر :

أزهقت أم نوفل إذ دعتها مهجتى ، مالقاتلى من متاب
حين قالت لها: أجيبى، فقالت من دعانى؟ قالت: أبو الخطاب
أبرزوها مثل المهاة تهادى بين خمس كواعب أتراب

وقال الجارم :

قالت خليلتها لها لتلينها ماذا جرى لما هجرت فتاك ؟
هى نظرة لاقت بعينك مثلها ماكان أغناه ، وما أغنـــاك
قد كان أرسلها لصيدك لاهيا ففررت منه ، وعاد فى الأشراك

وفيه من المتنبى اصطناع الحكمة وضرب الأمثال ، ثم الاستكثار من الفخر بشعره والإعجاب به .

قال المتنبى :

يموت راعى الضأن فى جهله موتة جالينوس فى طبـــه
وربما زاد على عمره وزاد فى الأمن على سربه
وغاية المفرط فى سلمه كغاية المفرط فى حربه
فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبـــه

وقال الجارم :

متعبة الإنسان فى حسه وشقوة الإنسان من فكره

كيف يرجى العصفور من كائن ألحأ المسنون فى ذره
لم يسم للأملاك فى أوجها ولا هوى للوحش فى قفره
رام اللباب المحض من سعيه فلم ينل منه سوى قشره
يسعى ومايدرى إلى نفعه سعيا حثيثا — أم إلى ضره

وقال المتنبى :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لايسير مشمرا وغنى به من لايغنى مغردا

وقال الجارم :

إذا قلته ألقى عطارد سمعه وسائل شمس الأفق : من هو قائله ؟
وإن سارت الريح الهبوب بجرسه فآخر أكناف الوجود مراحله

وفيه من ابن الرومى التوسع والإيغال بعض الأحيان فى المعنى الفرعى، يقع له عرضا أو استطرادا فلا يزال يمضى فيه ، ويلح عليه بالإضافة والتوليد حتى يجعل منه وحدة فنية قائمة بنفسها ، ذات صور ومشاهد متنوعة . قال ابن الرومى من قصيدة يعاتب بها أبا القاسم التوزى الشطرنجى :

غلط الناس، لست تلعب بالشط رنج ، لكن بأنفس اللعباء
أنت جديها . وغيرك من يلـ ـعب ، إن الرجال غير النساء
لك مكر يدب فى القوم أخفى من دبيب الغذاء فى الأعضاء
أو دبيب الملام فى مستهامي ـن إلى غاية من البغضاء
أو مسير القضاء فى ظلم الغيـ ـب إلى من يريده بالتواء
أو سرى الشيب تحت ليل شباب مستحير فى لمـــة شمطاء
تقتل الشاة حيث شئت، ن الرقـ ـة ، طبا بالقتلة النكراء
غير ماناظر بعينك فى الدسـ ـت ، ولا مقبل على الرسلاء

بل تراها وأنت مستدبر الظهـ ـر ، بقلب مصور من ذكاء
ما رأينا سواك قرنا يولى وهو يردى فوارس الهيجاء
رب قوم رأوك ريعوا فقالوا: هل تكون العيون فى الأقفاء؟
والفؤاد الذكى للطرق المظـ ـلمة عين يرى بها من وراء
تقرأ الدست ظاهرا فتؤدي ـه جميعا كأحفظ القراء

وقال الجارم من قصيدته فى رثاء المغفور له الملك فؤاد :

دفع الشعب للسبيل فكانت من سنا هديه أمانا ورشدا
ملهبا عزمه إذا اجتاز غورا مستحثا إذا تسلق نجـــدا
كلما غار أجزأت بسمة منـ ـه ، فمـــد الخطا حثيثا وجدا
ومضى كالقضاء يهوى لمرما ه ، جريئا بجمع القلب جلدا
يبهر الصخر أن يرى منه صلدا آدمى الرواء يقرع صـــلدا
لا يبالى إذا سعى للمعالى خبط الشوك ، أم توطأ وردا
وفؤاد أمامه خير هاد قاد للغاية البعيـــدة جندا
كان للمقدمين روحا وقلبـا ولركب السارين كفا وزندا
لو دعاهم إلى النجوم لساروا خلفه ، يزمعون للنجم قصدا
وإذا اليأس مسهم كان عطفا وسلاما على القلوب وبردا

وربما كان تمرس الجارم بالتعليم وشئونه من عوامل هذه الظاهرة ، بل ربما كان عاملها الوحيد . فالمعلم لكثرة ما اعتاد من إفهام وشرح — لا يؤثر فى بيانه الإيجاز والعرض ، ولا يطيب له الا كتفاء بهما دائما ، لكنه يكثر التلبث هنا وهناك ؛ لتوضيح مبهم ، أو تفصيل مجمل ، أو تقريب بعيد : إما بالتقرير والتفسير ، أو التفريع وجمع النظير ، أو ضرب المثل وتأليف التشبيه .

وفيه من أبي تمام تمكن القافية وشدة الاحتفال لها ، حتى كأنما يبدأ عمله في البيت بالتماسها وإحالة النظر فيها . فإذا راقته أسس عليها البيت ، واستلهم فكرتها في نظمه ، فلا يعدمك أن ترى هنا أو هناك صورة لها أو دليلا عليها بل لا يعدمك أن تراها بعينها في أثناء البيت مرة ، وبمكانها منه مرة أخرى .

قال أبو تمام :

أمن بعد طي الحادثات محمدا ... يكون لأثواب الندى أبدا نشر؟
إذا شجرات العرف جذت أصولها ... ففي أي فرع يوجد الورق النضر؟
لئن أبغض الدهر الخئون لفقده ... لعهدي به من يحب له الدهر
لئن غدرت في الروع أيامه به ... فما زالت الأيام شيمتها الغدر

وقال :

له ريقة طل ، ولكن وقعها ... بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل

وقال الجارم :

بنات الثغور يلعبن بالألـ ... ـباب ، لعب الشمول بالألباب
يتظاهرن بالحجاب ، وهل أذ ... كى الجوى غير لوم ذاك الحجاب
كم وجوه تنقبت بسفور ... ووجوه قد أسفرت بنقاب

وقال :

فياويح للصدر الرحيب الذي غدا ... يزدحم الآلام غير رحيب
تدب به في موطن الحلم علة ... لها كالصلال الرقش شر دبيب
نرى القلب منها واجبا أن تمسه ... فتتركه قلبا بغير وجيب

وفيه من البحتري وضوح المعنى ، وقرب المأخذ ، ورشاقة اللفظ . وربما كانت هذه الصفات من أخص صفات الجارم الفنية ، وأشدها تمكنا منه

ووضوحا فى شعره ، فإنك لتقرأ ديوانه كله : قصيدة قصيدة ، وبيتا بيتا فلا تكاد تقع فى معانيه على غموض أو تقييد ، ولا فى تراكيبه على ضعف أو اعتساف ضرورة ، ولا فى ألفاظه على نشوز أو ترخص فى الأوضاع أو انحراف عن سمت أفصح الاستعمالات . نمط من الموسيقا الشعرية ، متجاب النغم ، عذب الجرس ، يقوم على تأليفه وانتخاب وحداته ذوق فنى صحيح ، عظيم البراعة ، مرهف الحس دقيقه ، رفيع المجال ، تسعده ثروة ضخمة من لباب الأدب المنخل الكريم . قال البحترى يمدح المتوكل :

جمعت أمور الدين بعد تزيل ... بالقائم المستخلف المتوكل
بموفق للصالحات ميسر ... ومحبب فى الصالحين مؤمل
ملك إذا أمضى صريحة أمره ... لم يثن عزمته اعتراض العذل
بكرت جيادك والفوارس فوقها ... بالمشرفية والوشيج الذبل
غرّ محجلة تحاول وقعة ... بالروم فى يوم أغر محجل

وقال الجارم يهنئ جلالة الملك فاروق بتولى سلطته الدستورية ويمدحه:

الملك فيك طبيعة ووراثة ... والمجد فيك سليقة ونجار
أعليت دين الله جل جلاله ... فرسا له أصل ، وطال جدار
الدين نور النفس فى ظلماتها ... والعقل يعثر والظنون تحار
بين المنابر والمآذن بهجة ... وتحدث بصنيعكم وحوار
آيات نبلك فى شبابك سبق ... للمجد ، لم يشقق لهن غبار
يبدو شذا الريحان أول غرسه ... ويبين قدر الدرّ ، وهى صغار

ولا تتخلى عن الجارم هذه الظاهرة أبدا ، حتى فى المواطن التى يقل فيها التخيل وتأليف الصور . وهذه مثلا أبياته فى وصف حوار للعالمين الجليلين: أحمد الإسكندرى ، وحسين والى (رحمهما الله) ، إذ كان كلاهما يرى فى لفظه

غير مايرى صاحبه . استمع إليها ، فسترى الشاعر يحتفظ فيها بأناقة اللفظ، وطلاوة العبارة ، ونصاعة البيان ، بالرغم من أنه يغلب فيها الحقيقة الواقعة على الصورة المتخيلة قال:

ويوما مع الإسكندرى رأيته ... يجاذبه فضل الحديث المشقق
فهذا يرى فى لفظه غير مايرى ... أخوه ، ويختار الدليل وينتقى
فقلت : أرى ليثا وليثا تجمعا ... وأشدق ملء العين يمشى لأشدق
وأعجبنى رأى سليم ومنطق ... يصول على رأى سليم ومنطق
وقد لوحت أيديهما فكأنها ... إشارات رايات تروح وتلتقى
ولم أرفى لفظيهما نبر عائب ... ولم أرفى عينيهما لمح محنق
فقلت : هى الفصحى بخير-وإنها ... بأمثال هذين الحفيين ترتقى

والجارم فى المطولات مثله فى المقطعات وقصار القصائد : سمح فياض ، لايأخذه إعياء ، ولا يعتريه نضوب ، سواء مباديه ومقاطعه : كالجدول السلسال ، يخلو له وجه الطريق ، ويسعده الفيض الغزير . وهو بعد هذا يلم فى مطولاته مع المقصد الأصيل بألوان شتى من المقاصد والفنون ، يتنقل فيها تنقل الطائر الغرد بين ألوان من النغم مختلفات . فهو حينا صديق مسامر : يتحدث عن منازع نفسه ، أو يعرض فلسفته فى الحياة ، أو يصف شعره ومبلغ حبه له . وحينا حكيم مجرب : يصور طبائع الناس ، ويكشف عن آرائه فيهم وتجاربه معهم . وحينا مصلح اجتماعى : يشخص داء من أدواء المجتمع ، أو يدل على ناحية من نواحى ضعفه ، أو يجلى سنن الكون ، أو يستخلص العبر من وقائع التاريخ وسير الأبطال ، ثم يهيب بقومه أن يستجيبوا له ، وينتهوا إلى مايدعوهم إليه.

ولا نزاع فى أن الذين ينظمون المطولات كثير ، والذين يتنقلون فيها بين

مختلف المقاصد والفنون كثير كذلك ، ولكن الذين يوفقون فيها توفيق الجارم قليل ، فإنك إذ تقرأ إحدى مطولاته لا تكاد تحس ضجرا أو تجد فتورا كالذى تحسه من كثير من مطولات غيره . وهو حين ينتقل أو يستطرد لا يتكلف الانتقال أو الاستطراد ؛ ابتغاء الجمع والاستكثار ، ولكنه يمضى إليهما استجابة لدواعى النمط الجامع المحيط ، لا يغادر شيئا ذا صلة بموضوعه إلا اتجه إليه ووقف عنده وأجال الفكر فيه ، فإذا أنت معه لا تؤخذ بالفجاءة ولا تحس نبوة ولا عنفا ، ولكن تنساب هنا وهناك فى دنيا الخيال والأحلام انسيابا لطيفا كله هينة ورفق .

ثم هو محب للطبيعة : يفكر فيها كثيرا ، ويذكرها كثيرا ، حتى لتوشك أن تكون مادة لفظه ، ومتنزل وحيه ، ومناط خياله ، كلماتها أحب الكلمات إليه وأسرعها استجابة له ، وصورها أقرب الصور إلى ذهنه وأكثرها شيوعا فى شعره ، حتى المرائى لها من ذلك حظ عظيم . قال يرثى المرحوم أمين لطفى بك :

فقدناه فقدان الأليف أليفه يصيح به فى كل روض ويسجع
يسائل عنه الأفق ، والطير حوم ويستخبر الأمواه : والطير شرع
يدف فيحوى الأرض منه تأمل ويعلو فيعلو النجم منه تطلع
يظن خفيف الدوح خفق جناحه إذا همست منه غصون وأفرع
ويحسب تحنان الغدير هديله فيحبس من زفراته ثم يسمع
لقد ملت الغابات مما يحوسها وملء صماخ الليل مما يرجع

ولعل أهم ما يؤخذ الجارم به أنه حريص أشد الحرص على اصطناع صيغ التعبير المأثورة عن بلغاء العربية يقولونها لتحديد معنى أو تصوير مثل فى شتى مقاصد التعبير . وهى ظاهرة إذا أمكن اغتفارها للشادى المتكلف فمن

ذا يغفرها لصاحب الطبع الأصيل أو الرياضة الطويلة ! هيهات . فإنما هي ضياع قالها أصحابها للدلالة على خواطر جاشت بها نفوسهم أو صور تمثلت في أخيلتهم بوحي من البيئة التي أظلتهم . والعصر الذي كانوا يعيشون فيه . هي إذا لا تصلح في كل حال لمثل ما صلحت له عندهم ، ليعد ما بيننا وبينهم ومخالفة عصرنا لعصرهم خلافا كبيرا : هذا السيف مثلا قد أكثر الجارم من ذكره حتى ما تكاد تخلو قصيدة منه ، وشبه به حتى من لا مشابهة بينه وبينه .

قال يرثي إسماعيل صبري باشا :

لو شهدت الردى يحوم عليه ... والمنايا ترمي له الأحبولا
لرأيت الطود الأشم الذي كا ... ن منيع الذرا كثيبا مهيلا
ورأيت الصمصام لا يقطع الضغ ... ث ، وقد كان صارما مصقولا

وقال يرثي عاطف بركات باشا :

وأصاب من قبس الزكانة شعلة ... وهاجة فغدت فتيت رماد
وطوى حساما منك في جفن الثرى ... قد كان يستعصي على الأغماد

وقال يرثي أمين لطفي :

مرضت فقلنا مشرفي بغمده ... توارى ، ونجم عن قليل سيطلع

وتشبيه هؤلاء السادة وأمثالهم بالسيف عمل لا معنى له ، ولا باعث عليه إلا تقليد السابقين من الشعراء والحرص على اصطناع تعابيرهم ومذاهبهم في الرثاء ولكن أين نحن منهم ، وأين عصرنا من عصرهم ؟ لقد كان السيف عدة العربي في حياته ، والأداة اللازمة له في غدوه ورواحه . يتقي به العدوان ويحمي الذمار ، ويدرك الثأر ، ويطلب المغنم ، وله فيه مآرب أخرى كثيرة فمعقول جدا أن يذكره في مدحه ورثائه وكلما بدا له أن يذكره ، وهو دائما إذ يفعل صادق مؤثر ، وفنه سائغ مفهوم . أما نحن إذ نأخذ إخذه دون تفرقة

بين مقام ومقام فلانجتلى معنى مقصودا ؛ ولانصور مشهدا ماثلا، وانما نمتضخ صيغا معادة لاتعبر عن مدلولاتها التعبير الصادق الأمين ، ولاتؤثر بمعناها كما تؤثر برنين جرسها وانسجام موسيقاها . وإذا كان من المناسب أن نشبه رجل الحرب أو الزعيم الوطنى مثلا بالسيف فإن تشبيه أمثال صبرى وعاطف وأمين لطفى به مما لامعنى له ولامناسبة إلا على ضرب من التمحل بعيد

وأخريان يجتنبهما الحرص على اصطناع صيغ التعبير المأثورة . أنه أولا يوقع فى المبالغة وهى مما ينفر منه الذوق العصرى، وأنه ثانيا يوقع فى التلبيس وخلط السمات بعضها ببعض فاذا القيم متشابهة ، والمزايا طامسة المعالم والحدود. فمن مبالغات الجارم قوله فى رثاء المرحوم الشيخ النجار

إذا فاضت ينابعه خطيبا علمت بأن ماء البحر ضحل

وقوله فى رثاء المرحوم أبى الفتح الفقى :

خفقان نجم الأفق من خفقانه وهجير قيظ البيد من زفراته
وبكاء كل غمامة هتانة من بعض ما يبديه من عبراته

ومن التلبيس قوله فى رثاء اسماعيل صبرى :

أين ذاك الشعر الذى كنت تزجيـ ـه ،فيسرى فى الأرض عرضا وطولا
قد سمعناه فى المزاهر لحنا وسمعناه فى الحمام هديلا
وشممناه فى الكمائم زهرا وشربناه فى الكئوس شمولا
تنهب الدر من عقود الغوانى ثم تدعوه فاعلاتن فعولا

وقوله فى رثاء الزهاوى :

تملك حر الشعر سن يراعه فياعجبا أن حر الشعر آسره
تمنى العذارى لو تقلدن دره ورفت على أجيادهن جواهره
ويزهى العيون الدعج أن سوادها شبيه بما ضمت عليه محاره
وما جاشت الصهباء إلا لأنها وقد صفقوا مشمولها لا تناظره

وقوله فى رثاء داود بركات :

بيانك واضح القسمات صاف يكاد يشع من فرط الصفاء
يكاد يسيل فى القرطاس لطفا فتحسبه ملامة الانتهاء
بيان لو صدعت به الليالى رأيت الصبح منها فى العشاء
له نور يكاد يسير فيه رهين المحبسين بلا عناء
له النبرات ندعوها غناء فتأبى أن تعد من الغناء
سلاف تنهل الأرواح منه وتحمله السقاة بلا إناء
وروضات حلت فى كل عين وأغرت بالأزاهر كل راءى

فهذه الصور الثلاث كما ترى - متشابهة كل التشابه ، حتى لتصلح كل منها أن تحل محل الأخريين . لا خلاف ولا مناقضة ، كأن الشاعر لم يعن بتتبع خصائص أصحابها والتمييز بينهم وتحديد مذاهبهم البيانية بقدر ما عنى بتتبع أقوال البلغاء فى وصف الكلام البليغ وتصوير أمثلة منه ، فاجتمع له من كلام هؤلاء ما لم يجتمع من خصائص أولئك فاذا هو لا يتحدث عنهم ، ولا يصف فنهم ولكنه يتحدث عن الكلام البليغ فى ذاته ، ويصف أمثلة من صوره وصفا معادا ، تغلب عليه البرقشة والتصنيع .

والجارم بعد هذا يعمل عمل المقلين أحيانا ، بما يكرر من الصور والمعانى فمن ذلك فى الرثاء صورة الروض يخطئه الرى ، فتصوح أشجاره ، وتجف أزهاره ، وتجفوه أطياره . ومنه فى وصف البحث والتقصى صورة الصائد ، الأيد ، يشتد فى طلب القنيصة دائبا مصرا ، لا يزيده وعث الطريق وفرط الجهد إلا مصابرة واحتمالا حتى يدرك مأمله . ومهما يكن حظ هاتين الصورتين وأشباهما من جمال الفن وروعة التأثير ، فان التكرار ولامراء - من عمل المقل وهو جدير أن يخلق ديباجتها ويقلل تأثيرهما . قال من رثاء شوقى :

هل نعيتم للبحترى بيانه أو بكيتم لمعبد ألحانه؟
أو رأيتم روض القريض هشيما بعد ما قصف الردى ريحانه؟
فزعت طيره فمن يبكين ذبول الخيلة الفينانة
كن فى ظلها يغنين للشر ق، وينهضن للعلا شبانه

وقال فى رثاء الزهاوى:

جفا الروض مغبر الأسارير ماطره وغادره قفر الخمائل طائره
ذوى نبته بعد البشاشة وارتمت مصوحة أثماره وأزاهره
تلفت: أين الروض؟ أين مكانه؟ وأين مجاليه؟ وأين بواكره

وقال من قصيدة اللغة العربية ودار العلوم:

رب شيخ أفنى سواد الليالى ساهد العين جاهدا غير وانى
من بحوث إلى كتابة نقد ثم من معجم إلى ديوان
يقنص الآبدات عزت على الصيد، فماست بين الرباو الرعان...
إن تسمعن نبأة غبن فى الريح، كسر يصان بالكتمان
فإذا ما أمن يخرجن أرسلا لا، كخيل نشطن من أرسان
كل جزء فى جسمهن له عين على الشر أوله أذنان
لم يزل صاحبى يعالج منهن نفارا مستعصيا ويعانى....
وهى تلهو به، فآنا تجافيه، وآنا تملى له فتدانى
مرة فى مدى يديه، وأخرى ماله باقتناصهن يدان
لم يقف نادما يقلب كفيه فعال المجوف الحيران
ثم كانت عواقب الصبر أن ذلـ ت له الشاردات بعد الحران

وقال فى رثاء شوقى:

كم يتيم من المعانى غريب مسحت كفه عليه فصانه
وشموس رنا إليه فألقى رأسه خاضعا وأعطى عنانه

ونفور أزرى بصياده الطب وأعيا قبيه وسنانه
نظرة تلتقى به ينهب الوا دي، وأخرى تراه يطوى رعانه
تسبق السهم عينه، فتراه يتلوى تلوى الخزيرانه
ثم يخفى فلا تراه عيون ثم يبدو فلا تشك عيانه
أجهد الفارس الملح، وأفنى نبله حوله، وأضنى حصانه
وهو يمدو لا الرأس مال من الأيـ ـن، ولا قلبه شكا خفقانه
مد شوقى إليه نظرة سحر عوقت دون شوطه جريانه
فأتى مشية المقيد يسعى بين هول، وذلة، واستكانه

وثمة ظواهر أخرى للتكرار، لا نرى داعيا لعرضها والتمثيل لها وحسبنا ما أوردنا من ذلك، ففيه كفاية وغناء.

على النجدى ناصف
مفتش المعارف بالاسكندرية